النظم الإسلامية

في المغرب في القرون الوسطى

تأليف الدكتور
ج. ف. ب. هوبكنز

نقله عن الانجليزية
الدكتور أمين توفيق الطيبي

http://www.al-maktabeh.com

الدار العربية للكتاب
ليبيا - تونس

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

الفصـــل الاول

الموظفـــون

ان خصائص الحكومات الاسلامية في المغرب لا يمكن وصفها الا بصورة عامة جدا . ويعود هذا جزئيا الى ميول الكتاب الذين يبدون اهتماما بأمور اخرى غير الاقتصاد السياسي كما يعود ، وبدرجة اكبر ، الى ما يكتنف الموضوع ، في حقيقة الامر من غموض. فالمهام الصحيحة للحكومة والوسائل التي تتبعها لبلـــوغ غاياتها ، والموظفون الاداريون والتنفيذيون الذين يقع على عاتقهم تحقيق هذه الغايات — كل هذه الموضوعات تتناولها افكار غامضة لا تصل الى درجة نسبية من الوضوح والمنهجية ، ولو نظرية تماما ،الا في مصنفات الماوردي وزملائه .

ويرى الماوردي ان جميع مهـام الحكومة تتركز فـي الوزير تحـت السيطرة العليا للامام . وخلاصة ما يقوله (١) هو ان الوزارة ضربان :

---

١) الماوردي : الاحكام السلطانية ٣٣ وما بعدها .

http://www.al-maktabeh.com

وزارة تفويض ووزارة تنفيذ . اما وزارة التفويض فهي ضرورة عملية تحتمها على الامام استحالة القدرة البشرية على القيام بجميع اعمال الخلافة من قبل شخص واحد . ووزير التفويض مخول من قبل الخليفة التصرف باسمه في جميع الميادين ، ومن اجل هذا ينبغي ان تتوفر في الوزير الشروط الخمسة ـ سلامة الحواس الخ .. ـ المطلوب توفرها في الخليفة ، ما عدا شرط الانتساب الى قريش ، وهو شرط ليس من الضروري ان يتوفر فيه . الا انه بالاضافة الى ذلك ، يجب ان يكون الوزير من اهل الكفاية فيما يوكل اليه من امر الحرب وجباية الضرائب ، والصفة الاخيرة صفة اساسية .

واما وزير التنفيذ ، فلا يعدو ان يكون منفذا لتعليمات الامام . ويجوز ان يكون هذا الوزير من اهل الذمة .

الا انه يبدو بان هذه النظريات لم تكن قائمة بصورة راسخة على العرف المعمول به ، وبانها كذلك لم يكن لها تاثير كبير على الاعراف المتبعة فيما بعد . فقد كانت الادارة في كثير من الاحيان امرا معدا لغرض خاص وتخضع لهوى من يكون قادرا في تلك اللحظة على فرض سلطته . ولم يكن ثمة الكثير من الاجراءات او الوسائل المتبعة في التعيين ، ولم يتوفر الا القليل من التخصص ، كما لم يكن ثمة نظام خاص بالرتب ، ولم تكن ثمة طرق محددة المعالم لسير اعمال الحكومة . اما الموظفون فقلما كانوا موظفين بالمعنى الحديث . ففضلا عن الغموض في صفاتهم ، لم يكن لديهم تدريب خاص او مهارة ، وهم قد يعينون (او يعزلون) لاسباب شخصية او سياسية بحتة . وقد يكون المتقلد لمنصب سام ـ كالوزير مثلا ـ مجردا من السلطة الحقيقية ، بينما قد يتولى زمام السلطة شخص دونه في المنصب اسميا ، كالحاجب ، او شخص لا يشغل اي منصب اطلاقا . فلهذه الاسباب وغيرها يتعذر تحديد المهام الحكومية الا بصورة عامة ، وحتى في هذه الحالة ، فان

http://www.al-maktabeh.com

هذا التحديد ينبغي ان يؤخذ بتحفظ . وينبغي دراسة كل حالة على حـــدة .

ا ــ الـــوزيـــــــر

يقدم الوزير مثالا جيدا على هذه النقطة . فهو من الناحية النظرية الموظف الرئيسي في الدولة ، وهو شبيه برؤساء الوزارات في الازمنة الحديثة وقد منح سلطة مستقلة ، وهو غير مسـؤول امـام احـد غـير الامام . وقد يكون في الواقع اكثر من ذلك ، كما كان الحال بالنسبة لآل برمك في بغداد الذين كادوا يجعلون من الخليفة مجرد رئيس اسمي الى ان ادرك الخليفة الخطر الذي يهدده في اللحظة الاخيرة ، وكما في حالة الحاجب الاندلسي المنصور الذي كان الرئيس الاعلى للدولة في كل شيء ما عدا الاسم . الا ان الوزير قد يكون كذلك دون ذلك بكثير كما كان الحال بالنسبة لوزراء الاغالبة .

ففي عهد الاغالبة كان الوزير شخصية ذات اهمية ضئيلة عادة ، وكثيرا ما كان لقب الوزير لا يعدو كونه لقبا شرفيا . ويذكر ان اربعة فقط من بين الامراء الاغالبة الاحد عشر اتخذوا وزراء ، ومـــن بين هؤلاء الوزراء لم يترك سوى ثلاثة وزراء اي اثر . فزيادة الله عين اخاه غلبون وزيرا له ، وقلده امرة الجيش الذي هزم على يد الثائر منصور الطنبذي حوالي سنة ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م (٢) . وعين محمد الاول اخاه ابا جعفر احمد وزيرا ، وكان احمد لمدة سنة ومن الناحية العملية اميرا (٣) الا بل انه اتخذ لنفسه وزيرا . الا ان احمد حصل على الوزارة عن طريق القوة ، ومن بين الكتـــاب الكثيرين الذيـــن يذكرون هذه

---

٢) ابن الاثير : الكامل ٦/٢٣٢ . ابن عذارى : البيـــان المغرب ١/٩٨ ومـــا بعدهـــا . النويري : نهاية الارب ٣٤ وجـــه .

٣) ابن عذارى : البيان المغرب ١/١٠٨ . ابن الاثيـــر : الكامـــل ٧/١٧ . النويري : نهاية الارب ٣٧ وجه . ابن خلدون : العبر ٤/٢٠٠ .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الاحداث ، يلاحظ ان ابن خلدون هو الوحيد الذي يدعو احمد وزيرا ومن المشكوك فيه ما اذا كان احمد ينبغي ان يدرج اسمه في الواقع بين الوزراء .

وآخر هؤلاء الوزراء الثلاثة هو عبد الله بن الصائغ ، الذي قام بدور غامض في عهد آخر الاغالبة ، وهو زيادة الله الثالث . ويبدو انه حاول ان يلقي بسيده في قبضة [ابي عبد الله] الشيعي ، الداعي الفاطمي ، ومع ذلك فانه تبع أميره الى المنفى . وقد لقى زيادة الله القبض عليه بطريق الصدفة في مدينة طرابلس الغرب وامر باعدامه . ولكن ما الذي يعنيه عريب حينما يقول (٤) ان ابن الصائغ ولي الوزارة **والبريد** ؟ او كيف يمكن للمرء ان يفسر وصف ابن عذارى لغلبون (٥) بانه « وزير زيادة الله **وقائم بامره** » ؟

ومن ناحية اخرى نرى في الصديني (او الصدني) ، اذا صدقنا رواية النويري ، وزيرا بكل معنى الكلمة دون ان يحمل الاسم (٦) : في سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠١ م ولاه ابو العباس « قضاء القيروان والاحكام والنظر في العمال وجباية الاموال » . وهذا رغما عن كون الصديني من البربر على ما يحتمل .

اما قلة الاهمية هذه فنعتقد انها تعود لسببين . اولهما ان الامراء الاغالبة كانوا في الغالب نشطين وتولوا هم بانفسهم الاعمال التي كان يمكن ان تفوض للوزراء . وعندما بدأت اسرة الاغالبة حكمها لم تكن اراضيهم سوى ولاية واحدة من امبراطورية مترامية الاطراف . وثانيهما ان الاغالبة ، بوصفهم خلفاء لمن سبقهم من الامراء

---

٤) ابن عذارى : البيان ١٣٦/١

٥) نفس المصدر ٩٧/١ .

٦) النويري : نهاية الارب ٤٥ وجه

التابعين للخليفة ، كانوا ينزعون الى الاحتفاظ بنفس الجهاز . وكان الامراء الذين سبقوهم يعينون من دمشق او بغداد كزملائهم في مصر وخراسان الخ ... وفي الواقع كثيرا ما كان لوزير الخليفة يد في تعيينهم . وكان تعيين الوزير من امتيازات الخليفة تقليديا ، وبالعكس فان تعين الوزير يمكن ان يعتبر بانه يشكل عنصر منافسة للخلافة . وهكذا ، فمع ان الاغالبة كانوا مستقلين فعليا ، الا انهم مع ذلك لم ينفوا ابدا خضوعهم نظريا للخليفة في بغداد ، واكتفوا حتى نهاية حكمهم بلقب امير ، واعترفوا بسيادة الخلفاء العباسيين عليهم . ومن المرجح ان الاغالبة — وبعضهم اكثر من غيرهم — كانوا يشعرون ، ولعلهم بنصف وعي فقط ، بهذه العاطفة من التبعية للعباسيين ، واولئك من بينهم الذين كانوا يشعرون بذلك شعورا قويا احجموا عن الاستطالة على حقوق الخليفة — وهو عمل ما كانوا ليجنوا من ورائه مكسبا ماديا ، لا بل كان من الممكن ان يثير الخليفة للثار منهم .

ويبدو ان الاغالبة لم يعينوا قط غير العرب في منصب وزير او في مناصب هامة اخرى الا بصورة استثنائية . وكانت الدولة الاغلبية تحكمها ارستقراطية عربية يساندها — ولو بصورة غير منتظمة — جند من العرب كانوا اقل عددا بكثير من بقية السكان الذين — مع خضوعهم اجمالا — كان ينظر اليهم كمعادين ، ولذلك فانه كان يحال بينهم وبين الدخول الى المناصب ذات الامتياز . وفضلا عن الصديني الآنف الذكر ، فمن المحتمل ان الوزير الذي عينه مدعي الامارة ابو جعفر احمد كان بربريا (كانت نسبته الجراوي ، اي انه كان ينتمي الى قبيلة جراوة الزناتية التي كانت تسكن في منطقة الأوراس) ، الا ان هذا كان امرا غير عادي تماما ، ويعود دون شك الى رغبة ابي جعفر في مكافأة اولئك الذين ساعدوه في ثورته . ومن المشكوك فيه على اية حال ما اذا كان لجعفر الحق ، باي مقياس ، في تعيين وزير .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وترد لابن خلدون (٧) عبارة غريبة لا يوردها غيره ، وهي ان زيادة الله الاول « استوزر كل رئيس بناحية » . وهذه العبارة لو اخذت بمدلولها الظاهري تؤيد الفكرة بان لقب وزير لم يكن في الغالب سوى لقب فخري ، ومن الجائز انه كان لصاحبه مرتب . ولعل الوزير علي ابن حميد الذي يذكره المالكي (٨) ينبغي اعتباره ضمن هؤلاء الوزراء الفخريين . ولا يرد ذكره في اي مصدر آخر . والوزارة بمدلولها المتقبل عادة هي اساسا جزء من الحكومة المركزية ، وتقليدها لرؤساء النواحي استحداث مفوض لذلك المظهر الاساسي . وتشتمل طبعة بولاق من كتاب (العبر) على كلمة « استولى » بدلا من « استوزر » (٩) ، الا ان هذه قراءة لا تكاد تكون خيرا من الاخرى .

وفي هذه الاثناء ، قامت دولة الادارسة في شمال المغرب الاقصى في سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨ م ، ويمكن القول بانها بلغت اوجها في سنة ٣٢١ هـ / ٨٣٦ م عند وفاة ادريس الثاني . ان الكثير من تاريخ الادارسة غامض ، كما ان الكثير من الادب المتوافر الذي وصلنا هو ادب تمجيدي النزعة . وكالاغالبة ، كان الادارسة ارستقراطية عربية تحكم اكثرية بربرية ، الا ان الادارسة ، بخلاف الاغالبة ، كانوا يتمتعون بتأييد شعبي . وحينما وفد ادريس الى المغرب رحبت به قبيلة أوربة ، ولم يمض وقت طويل قبل ان توطد سلطانه في منطقة فاس والزرهون . وقد يعزي نجاحه في بلاد غريبة لدوره كمركز لاستقطاب الشعوز المعادي للعباسيين . وبالرغم من هذا النجاح فان ادريس وابنه شعرا بمركزهما المنعزل ، ولم يضيعا وقتا طويلا قبل

---

٧) نويل دي فرجر (Noël des Vergers) ، ٣٨ .
٨) المالكي : رياض النفوس ٣٥٠ وما بعدها .
٩) ابن خلدون : العبر ١٩٧/٤ .

تشكيل «مخزن» (١٠) حينما سنحت الفرصة لذلك . وقد سنحت تلك الفرصة في سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٤ م . فقد جاء في (روض القرطاس) (١١) ان جماعات لا يستهان بها من العرب قدمت في هذا العام الى فاس من افريقية والاندلس ولقيت ترحيبا حارا من جانب ادريس . واتخذهم حاشية دون البربر واختار من بينهم وزيرا ـ هو عمير بن مصعب الازدي ـ وقاضيا . كما يضيف اليه الكتاني (١٢) كاتبا هو أبو الحسن عبد الله بن مالك الانصاري الخزرجي المالكي . الا ان مما تجدر ملاحظته طبيعة هذه المصادر المشبوه فيها . فالبكري ، وهو اقدم من كتب عن الادارسة ، لا يذكر اخبار الوصول في عام ١٨٩ هـ ، بينما صاحب (روض القرطاس) الذي جاء بعده بثلاثمائة سنة يذكر ذلك ، كما يذكر الوزير والقاضي بالاسم ، وما ان جاءت نهاية القرن التاسع عشر حتى اصبح لادريس كاتب ايضا يحمل اسما طويلا حسب الظروف (١٣) . اما كون ادريس رحب بالمهاجرين العرب وشكل منهم مخزنا فامر كبير الاحتمال ، الا ان التفاصيل ينبغي قبولها بتحفظ . وكما يقول ابن خلكان (١٤) فان اول شخص خوطب بلقب وزير كان في عهد السفاح اول الخلفاء العباسيين ، اي قبل ١٨٩ هـ بسبعة وخمسين عاما على الاكثر ، ولم تكن دولة الادارسة بالدولة التي تحتاج الى القاب سلطانية . وكما يقول ابن خلدون (١٥) فانه لا يمكن حتى اعتبارها دولة

---

١٠) تستعمل كلمة « مخزن » بمدلولها المغربي لتعني حكومة متحالفة مع جماعات مقربة معينة تقوم بمساندة الحكومة عسكريا ، بينما يكون بقية السكان ممادين لها الى حد ما .

١١) ابن ابي زرع : روض القرطاس : ١٣ .

١٢) الكتاني : الازهار ١٣٧ .

١٣) [يشير المؤلف الى احمد السلاوي صاحب (كتاب الاستقصا) المتوفى سنة ١٨٩٧/١٢١٥ م ـ المعرب] .

١٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٣٣٢/١ .

١٥) ابن خلدون : المقدمة ٢٢٠ .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

عربية ، ولم يمض وقت طويل قبل ان تجزأت الى امارات صغيرة على النمط البربري .

وفيما يختص بدولتي المغرب المعاصرتين تقريبا للاغالبة والادارسة ، وهما دولتا الرستميين في تيهرت وبني مدرار في سجلماسة ، فاننا لا نعرف الا القليل عن الدولة الاخيرة ولا نعرف اكثر من ذلك عن الرستميين . ان ابن الصغير هو المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن الرستميين ولكنه — على حد علمنا — لا ينسب اليهم وزراء ولا حتى كتابا حتى بالرغم من كونهم حملوا لقب امام ، وبالتالي ادعوا لانفسهم المزايا الخلافية .

يقول ابن خلدون (١٦) : ثم جاءت دولة الشيعة بافريقية والقيروان. وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة ، فأغفلوا امر هذه الخطط اولا [اي الوزارة والحجابة الخ ..]وتنقيح اسمائها الى ان بلغت دولتهم درجة في الحضارة فمضوا يقلدون الدولتين اللتين سبقتاهم [اي العباسيين والامويين في الاندلس] في ابتداع اسماء لهما . وهذه العبارة يؤيدها ابن عذارى (١٧) بالنسبة للوزير فقط ، اذ يقول ان عبيد الله عندما اقام دولته في سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م اتخذ حاجبا وكاتبا وقاضيا ، وولى اشخاصا على بيت المال وديوان الخراج والسكة والعطاء . ومن الواضح انه كان للفاطميين منذ البداية حكومة تضم ادارات من نوع ما ، الا انه يبدو بانهم لم يتخذوا وزراء الا فيما بعد . ويذكر ابن عذارى كذلك (١٨) حاجب ابي القاسم واحد قضاته ، ولكنه لايذكر وزيرا ، ثم يذكر ضمن احداث سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م (١٩)

---

١٦) نفس المصدر ١٤٢ .

١٧) ابن عذارى : البيان ١٥٩/١

١٨) نفس المصدر ٢٠٨/١

١٩)نفس المصدر ٢٣٨/١ .

ان العزيز عزل « الوزراء جوهرا [القائد الشهير] وغيره » . ويذكر حسن ابراهيم حسن (٢٠) أن المعز ، كما تفيد الرواية ، اتخذ جوهرا وزيرا في سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ ــ ٩٥٩ م ، الا انه لا يذكر مصدر هذه الرواية .

ولا يعني هذا ان الفاطميين منذ البداية لم يكن لديهم موظف كان يتولى مهام الوزير دون ان يحمل لقبه . فابو جعفر البغدادي مثلا بعد ان تولى الجباية ، عهد اليه آخر الامر بالادارة العامة ؛ اذ تولى كل شيء ما هو مهم وغير ذلك من الامور (٢١) . وقد احتفظ ابو جعفر بهذا المنصب ذي النفوذ في خلافتي القائم والمنصور .

اما بنو زيري وبنو حماد ، فان نظمهم الادارية يكتنفها الغموض . وقد كان بنو زيري اولا مجرد نواب للخلفاء الفاطميين بعد انتقال هؤلاء الى القاهرة ، ثم اعلنوا ولاءهم للخلفاء العباسيين فيما بعد ، الا انهم لم يعلنوا قط انفسهم ملوكا مستقلين . ومن الجدير بالملاحظة ان بني زيري حاولوا فيما بعد التصالح مع الفاطميين (٢٢) . ويصف ابن عذارى مؤدب المعز بن باديس ــ ابا الحسن بن ابي الرجال ــ بانه وزير المعز (٢٣) كما ان رجلا آخر من رجال المعز يصفه ابن الاثير (٢٤) ــ دون ابن خلدون (٢٥) ــ بانه وزير . واما بنو حماد اصحاب القلعة،

---

٢٠) حسن ابراهيم حسن : المعز لدين الله .. ص ١٤٦ .

٢١) جعفر الحاجب : سيرة جعفر الحاجب (ايفانو) ص ٢٢١ .

٢٢) انظر مراجعة د . س . رايس لكتاب هـ ، و ، هزارد (تاريخ النميات في المغرب في اواخر القرون الوسطى) في مجلة معهد الدراسات الشرقية والافريقية بلندن (B.S.O.A.S.) مجلد ١٧ ص ١٨٦ .

٢٣) ابن عذارى : البيان المغرب ١ / ٢٧٣ .

٢٤) ابن الاثير : الكامل ٩ / ٢٣٠ .

٢٥) ابن خلدون : العبر ٧ / ٤٣ .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فان ابن عذارى (٢٦) ينسب اليهم اسرة من الوزراء ، هي اسرة بني حمدون ، توارث ابناؤها الوزراء بالتعاقب .

وفي عهد المرابطين ، نجد أن نفس الغموض يكتنف منصب الوزير . فثمة شخص أو اثنان يدعيان احيانا بالوزير ، الا انه لا تتوفر عنهما وعن نشاطهما سوى معلومات ضئيلة . كان ليوسف بن تاشفين وزير اسمه محمد بن عبد الغفور (٢٧) وآخر هو سير بن ابي بكر (٢٨) . ومع أن صاحب (الحلل الموشية) يدعو الاول وزيرا ، الا انه كان مسؤولا عن كتابة النص الذي ولي علي بن يوسف العهد بموجبه ، وهو عمل اقرب لعمل الكاتب منه لعمل الوزير . واما الشخص الثاني ، فهو معروف كقائد عسكري . وفي الواقع فان المرابطين ابلوا في الشؤون العسكرية اكثر مما ابلوا في الشؤون المدنية . وكان لعلي بن يوسف وزير هو ينتان (أو ينتيان) بن عمر الذي خلف اسحاق . وينتان معروف كشفيع للمهدي بن تومرت لدى علي بن يوسف ، معارضا بذلك مالك بن وهيب اثناء استجواب ابن تومرت من قبل الفقهاء المرابطين . وكان كذلك قائدا للحشم . ويقال ان اسحاق عين وزيرا وهو في الثامنة عشرة من عمره ، وكان آخر ذكر له سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م حينما كان على رأس قوة استسلمت لعبد المؤمن . وثمة اشارة اليه في موضع آخر (٢٩) كصاحب المظالم (٣٠) . ويبدو ان المصادر تشير الى ما هو محتمل ضمنا وهو أن الوزير المرابطي كان في المقام الاول ، في

---

(٢٦) ابن عذارى : البيان المغرب ١/٣١٠ .

(٢٧) مؤلف مجهول الاسم : الحلل الموشية ٦٣ .

(٢٨) نفس المصدر ١٣ .

(٢٩) انظر أدناه ص ٢٣٩

(٣٠) عن اسحاق وابنه انظر ليفي — بروفنسال : فهرس (وثائق لم تنشر عن تاريخ الموحدين) . ابن عذارى : البيان المغرب ٤ / القسم الخاص بالمرابطين ١٠١ وما بعدها . مؤلف مجهول الاسم : الحلل الموشية ٦٨ .

مثل على بلوغ الوزارة اوجها ، في حين ان السلطان الحقيقي اصبح مجرد اداة .

اما في الفقرة الثانية ، بعد الاولى ببضعة اسطر ، وتحت عنوان (الحجابة) كما يبدو ، فان ابن خلدون يعود الى فكرته عن البداوة بادىء الامر ، ثم يصرح بانه لم يكن عند الموحدين من الرتب غير الوزير ، فكانوا اولا يخصون بهذا الإسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص امره كابن عطية وعبد السلام الكومي . وكان له مع ذلك النظر في الاشغال المالية . ثم صارت الوزارة بعد ذلك لاهل الدولة كابن جامع . ويختم كلامه قائلا بان اسم الحاجب لم يكن معروفا في دولتهم يومئذ .

تشتمل هاتان العبارتان على جوانب متناقضة ، الا انه يمكن ايراد ادلة تبين بانه حتى الاوصاف الصريحة التي لا لبس فيها لا تتفق مع الحقائق المستقاة من مصادر اخرى .

ان (روض القرطاس) و (المعجب) و (البيان المغرب) و (الحلل الموشية) كلها تنتهج بانتظام طريقة ايراد قائمة ، بالنسبة لملك ما ، باسماء جميع وزرائه وكتابه وحجابه الخ . في موضع واحد . وينحو ابن صاحب الصلاة (٣٤) نفس المنحى بالنسبة لعبد المؤمن فقط ، اذ لم يصلنا سوى قطعة من كتابه . ومن هذه المصادر ، ومن اشارات متفرقة في مواضع اخرى ، يتسنى للمرء جمع قوائم باسماء الوزراء الخ . تكاد تكون كاملة .

ويتبين من مثل هذه القائمة بان المصادر المتعددة غير متفقة فيما بينها ، ولا تتوفر الا في حالات استثنائية فقط الوسيلة لاخضاع

---

٣٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٢٢٣

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

أوائل عهدهم على الاقل ، جنديا وعضوا في الاخوّة المرابطية (كما يستدل من الاسماء البربرية) .

ان اشهر وزراء المرابطين واكثرهم جدارة باللقب هو مالك ابن وهيب (٣١) . ولا يدعوه كل الكتاب بهذا اللقب ، الا ان مما لا شك فيه انه كان في مقدمة مستشاري علي بن يوسف ، كما يستدل من الدور الذي قام به في المواجهة التي جرت بين ابن تومرت والفقهاء المرابطين وكان عالما ومصنفا لعدة كتب واندلسيا .

يتناول ابن خلدون الكلام بصورة عامة عن الوزير في دولة الموحدين في فقرتين منفصلتين في (المقدمة) (٣٢) . فهو يذكر اولا تحت عنوان (الوزارة) ان دولة الموحدين اغفلت الامر اولا للبداوة ، ثم صارت الى انتحال الاسماء والالقاب ، وكان اسم الوزير في مدلوله .. ثم اتبعوا دولة الامويين في الاندلس وقلدوها في مذاهب السلطان ، واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويعنى بامور المراسم وآدابها . وبعبارة اخرى ، فان لقب الوزير كان يستعمل للموظف الذي يسمى عادة بالحاجب — وهو تغيير يلفت الانتباه لدوري صاحبي المنصبين المتبادلين . ولعل هذا صحيح بالنسبة للامويين ، اذ ان الحجاب ، كما هو معروف ، في اواخر ايام الامويين كما يتمثلون في المنصور ، كانوا وزراء في الواقع ، ولعل وزراءهم كانوا حجابا بالفعل ، مع انه يبدو بان الوزير كان في الحقيقة لقبا شرفيا يؤهل صاحبه لتقاضي مرتب (٣٣) . والحاجب الاندلسي الشهير المنصور خير

---

٣١) المراكشي : المعجب ١٨٥ وما بعدها . ابن خلكان : وفيات الاعيان ٤٩/٥ . ابن الاثير: الكامل ٤٠٢/١٠ ، المقري : نفح الطيب: ٢٧/٥ .

٣٢) ابن خلدون : المقدمة ١٤٢ وما بعدها .

٣٣) ليفي — بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ٢١/٣

البيانات المتضاربة للتمحيص النقدي . فمثلا يذكر ابن صاحب الصلاة ، دون غيره ، ادريس بن جامع من بين وزراء عبد المؤمن ، وينقل ابن ابي زرع عن ابن صاحب الصلاة ، ولكنه يسميه كاتبا . اما ابن الابار (٣٥) فيذكر ان نكبة ابن جامع كانت في سنة ٥٧٣ هـ بعد ان استكمل في وزارته خمس عشرة سنة وشهرا وعشرين يوما : وهذا يعني انه عين في سنة ٥٥٨ هـ ، اي في السنة التي توفي فيها عبد المؤمن . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار التفاصيل الواردة في رواية ابن الابار ، وخلو رواية الكاتبين الآخرين من مثل هذه التفاصيل ، وما جاء في (المعجب) (انظر ادناه) ، فانه يبدو من المحتمل ان ابن جامع لم يحظ بلقب وزير في عهد عبد المؤمن بل عينه يوسف بعد ان خلف اباه بوقت قصير . ومن ناحية اخرى ، فان العبارة الاصلية لابن صاحب الصلاة (٣٦) وهي مكررة حرفيا في (روض القرطاس) ، تقول : ووزر ادريس ابن جامع بين يدي السيد ابي حفص . والشخص الاخير ، كما يستدل من لقبه «السيد (٣٧)» كان من عقب عبد المؤمن ، وعلى وجه التحديد ابنه عمر ، وهو الذي يعده في الواقع ثلاثة كتاب من بين وزراء ابيه عبد المؤمن ، ووزراء اخيه يوسف بن عبد المؤمن . وهذه السنّة الخاصة بتعيين قريب قرابة ماسة للوزراء يمثلها ايضا يوسف الذي ولى الوزارة ابنه وخليفته يعقوب . وقام يعقوب بتعيين اخيه ابي عبد الله كما ان الناصر عين اخاه ابراهيم . وفضلا عن ذلك ، فانه قد ذكر بان ابا بكر بن يوسف الكومي ، احد وزراء يوسف ، قد وزر بين يدي يعقوب . ولعل ذلك يجيز لنا بان نرى في هذه الترتيبات رغبة في

---

٣٥) ابن الابار : الحلة السيراء ٢/٢٤٠ وما بعدها

٣٦) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٢٣٨ .

٣٧) يعني لقب « سيد » عند الموحدين ان صاحبه من عقب عبد المؤمن (انظر مثلا « نفح الطيب » ٤ / ١٠٧) .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الاحتفاظ بجلال الرتبة الوزارية بين افراد تصلهم بالخليفة قرابة ماسة، مع منح صاحب الرتبه عونا فنيا ، وربما ناصحا امينا قد لا يكون قد حظي باللقب،ولعل ادريس بن جامع قام بمثل هذا الدور البارز في ايام عبد المؤمن،ومما يؤيد هذا الراي ان عمر بن عبد المؤمن ، كما جاء في (المعجب) (٣٨) ، وزر لاخيه يوسف عند توليه الملك اياما يسيرة ، ثم وزر له ادريس بن جامع ، اي انه منح اللقب واضطلع بأعباء المنصب في آن واحد ، في حين انه كان الى ذلك الحين ، كما يقول ابن ابي زرع ، مجرد كاتب . ومزية هذا الافتراض انه يجنب الطعن في ابن صاحب الصلاة الذي يبدو انه يمكن الاعتماد عليه ، وكان لعب دورا في الاحداث التي يرويها . ومهما يكن من امر ، فان كل هذا مجرد تكهن لا يقوم على بينة كافية .

كما يلاحظ انه في حالة عبد المؤمن ، هنالك بعض الالتباس بين الوزراء والكتاب . اما فيما يتعلق بأحمد بن عطية ، فان اصحاب التراجم ، الذين يبدو بان معلوماتهم مستقاة آخر الامر من ابن الابار(٣٩) يقولون جميعا بكل وضوح انه كان وزيرا وكاتبا في آن واحد ، وفي الحالات الاخرى يميل صاحب (روض القرطاس) الى ان يسمي كاتبا من يسميه الكتاب الآخرون وزيرا ، الا اننا نجد العكس في حالة عطية بن عطية . وبعد خلافة عبد المؤمن لا نجد ابدا اي التباس بين المنصبين ، مع ان ابن يوجّان جمع في خلافة المنصور بين منصبي الوزير وصاحب الاشغال (٤٠) .

وقد يسأل : « ما الصلة بين الوزير والعشرة والخمسين

---

٣٨) المراكشي : المعجب ٢٤٤ .

٣٩) ابن الابار : الحلة السيراء ١٩٤/٢ ، ٢٣٨ .

٤٠) ابن عذارى : البيان المغرب ٣/القسم الخاص بالموحدين ٢٠٩

في حملة حربية لا يترك الوزير ابدا كنائب عنه ، بل كان يترك سيدا دائما . ففي سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م مثلا ترك يوسف اخاه المذكور آنفا مع ان وزيره آنذاك كان الوزير الشهير والكفء ادريس ابن جامع (٤٥) . وفي سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م نجد المنصور ينيب عنه ابن عمه السيد ابا الحسن (٤٦) . وبنفس الطريقة احتفظ بثبات بالسلطة الاسمية في ادارات الولايات في ايدي السادة اتباعا للسنة التي استنّها عبد المؤمن (٤٧) . ولا يعني ذلك ان السلطتين الحقيقية والاسمية كانتا بالضرورة تجتمعان في شخص واحد ، الا ان من المؤكد ان الانطباع الذي يخرج به المرء هو ان السادة كانوا في الغالب رجالا اكفاء ونشيطين ولا يتأثرون بآراء مستشاريهم اكثر مما يجب . وبعد وفاة الناصر فقط (في سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م) نلاحظ ان الخصومات الداخلية حلت محل الوئام بين افراد الاسرة الحاكمة ، مما ادى الى تركيز السلطة في خلافة الرشيد في يدي وزيره عبد الله ابن [ابي] سعد بن المنصور (٤٨)

ب ــ الكاتب

ان اول كاتب في المغرب وصلنا اسمه هو عبد الملك الذي سبق ذكره ككاتب لادريس الثاني . وهو الذي أعد ، كما تذكر الرواية ، عقد بيع موقع مدينة فاس بين بني يزجاتن وادريس بن ادريس . ومن المحتمل جدا ان للرواية التقليدية عن تأسيس فاس (٤٩) اساسا من الحقيقة ،

---

٤٥) ابن عذارى : البيان المغرب ٣/القسم الخاص بالموحدين ١١٠

٤٦) نفس المصدر ١٥٧ .

٤٧) انظر ادناه ص ١٩٢

٤٨) ابن خلدون : العبر ٦/٢٥٤

٤٩) انظر ليفي ــ بروفنسال : تاسيس مدينة فاس [الفصل الاول من Islam d'Occident باريس ١٩٤٨ (الترجمة العربية للكتاب بعنوان : الاسلام في المغرب والاندلس ، القاهرة ١٩٥٦) ــ المعرّب]

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الخ .؟ » (٤١) والجواب على ذلك انه لا توجد اية صلة على ما يبدو . ومن بين كل الشخصيات في هذه الطبقات لا نجد سوى المهيب عمر ازناج (٤٢) بين الوزراء ، ومما يلفت النظر انه كان اولهم جميعا . وتشير الدلائل بوضوح الى ان الجماعة واهل خمسين ، او على الاقل اي تأثير يمكن ان يكون لهما ، تلاشيا بوفاة المهدي ، والا لكانت قد ظهرت بالتأكيد فيما بعد اشارة ما لاستمرار وجودهما . ويبدو ان الحفصيين (٤٣) احتفظوا بشيء من ذكراهما في خطة مظالمهم ، ولكن حتى في هذه الحالة لا يبدو ان عملهما كان يعدو شؤون المراسم . ولعلهما في هذه الحالة احياء مصطنع لحماس الحفصيين القائم على التمسك بأصول الدين .

يقول المراكشي بوضوح في موضعين ان الوزارة لم تكن اعلى المناصب في دولة الموحدين (٤٤) . كان عمر ازناج لعدة سنوات وزيرا لعبد المؤمن الى ان استقر له الامر فأجلى عمر عن الوزارة « وربأ بقدره عنها اذ كان عندهم فوق ذلك » . كذلك فان عمر كان وزيرا لفترة قصيرة في نهاية حكم والده واستمرت وزارته الى حكم يوسف (كما ذكر اعلاه) ولكن بعد بضعة ايام « ارتفع قدره عن الوزارة اذ رآها دونه » . وثمة اشارات واضحة بان الوزير الموحدي كان يعتبر مجرد موظف تنفيذي دون ان تكون له صلاحية اتخاذ قرارات مستقلة ، ولعل ملاحظات المراكشي تشير الى ذلك . وكان الخليفة كلما بارح مراكش

---

٤١) انظر ادناه ، الفصل السابع .

٤٢) [يرد الاسم على صورة « اصناك » لدى البيذق في (كتاب اخبار المهدي) ص ٧٣ ، وعلى صورة « اصناج » لدى ابن القطان في (نظم الجمان) ص ١١٧ — المعرّب] .

٤٣) العمري : قطعة من (المسالك) نشرها وحققها ح. ح. عبد الوهاب بعنوان (وصف افريقية والاندلس اواسط القرن الثامن للهجرة) ص ٩ .

٤٤) المراكشي : المعجب ١٩٨ ، ٢٤٤ .

الا ان الزيادات التي طرأت على الرواية تجعل من الصعب التمييز بين الحقيقة والخيال . واول ما يتبادر الى الذهن ابعاد اسم عبد الملك هذا على إنه جزء من قصة خيالية ، تنم عـــن ورع ، يقصد بها المباهاة بتمسك ادريس الشديد والتزامه بما تفرضه الشريعة ، وربما لتهيئة اساس تاريخي للوضع القانوني لمنطقة فاس .

ان تسمية كاتب لم يكن مرغوبا فيها في عهد الاغالبة . فلم يكن ، على حد علمنا ، ثمة موظف يعرف بالكاتب مجردا فحسب ، بل ان الكلمة لم تستعمل في الاسماء المركبة ككاتب العلامة وكاتب السر الخ .. ، كما كان الحال في الدول الاخرى . ولعل كون شخص يعرف بأبي اليسر البغدادي (٥٠) « كتب لبني الاغلب حتى انصرمت ايامهم » يدل على انهم اخذوا يستعملون الكلمة في اواخر ايامهم .

وقد ثبّت ابو اليسر هذا في منصبه من قبل عبيد الله المهدي ، الا انه لم يلبث ان توفي ، وعلى الاثر « استكتب » المـــهدي ابا جعفر محمد ، وهو بغدادي ايضا (٥١) . وكان ابو جعفر هذا قد ولي ديوان الكشف في نفس السنة (٥٢) ويؤكد ابن الابار (٥٣) ذلك بقوله ان ابا جعفر عين كاتبا للسلطان وصاحب البريد بعد ان قام بمهام سرية لم يفصح عنها . وقد ظل في المنصب سنين عديدة ، وفي سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م ثبت على البريد .

كان كتاب المرابطين اندلسيين بدون استثناء ، وكان العديد منهم قد ولي الوزارة لدى ملوك الطوائف . فابن عبدون مثلا كان قد ولي الوزارة

---

٥٠) ابن عذارى : البيان المغرب ١٦٣/١

٥١) نفس المصدر والصفحة .

٥٢) نفس المصـــدر ص ١٦٢ .

٥٣) ابن الابار : إعتاب الكتّاب ١٨٩ .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

للمتوكل بن الافطس (٥٤) ، وكان ابن القصيرة وزيرا للمعتمد ابن عباد (٥٥) ، ولذلك فان المقري مثلا حينما يدعو ابن برد « الوزد الكاتب » (٥٦) او حينما يشير المراكشي الى « الوزير » ابن عبدون (٥٧) ، فان هذه الصفة ينبغي ارجاعها الى ايامهم في الاندلس. ولا يرد اسم كاتب واحد من البربر بين اسماء كتاب المرابطين . وفي الواقع فان علي بن يوسف صرف عنايته لجلب الكتاب من الاندلس (٥٨) .

ولا يمكن ذكر الشيء الكثير بصورة اكيدة عن واجبات هؤلاء الكتاب ، عدا عن انه كان يعهد اليهم انشاء الكتب الرسمية ، وانهم كانوا يستشارون احيانا من قبل السلطان . وان عددا كبيرا من الرسائل او القطع التي يدعى بانها صادرة عن ديوان الانشاء المرابطي توجد مبعثرة في المصنفات المختلفة مثل (قلائد العقيان) و (مطمح الانفس) لابن خاقان ، و (الذخيرة) لابن بسام ، و (نفح الطيب) للمقري ، بالاضافة الى احدى وعشرين رسالة ذكرها ليفي — بروفنسال في مجموعة لم تنشر بعد (٥٩) . وهذه الرسائل مكتوبة بالاسلوب المعتاد المبالغ فيه ، مع ان هذا الاسلوب ، اذا كان لنا ان نصدق كلام المراكشي ، لم يستعمله كل كتابهم . وقد كتب ابو بكر بن القصيرة

---

٥٤) انظر مقدمة بحث دوزي بعنوان : تعليق تاريخي على قصيدة ابن عبدون .

٥٥) المراكشي : المعجب ١٦٤ .

٥٦) المقّري : نفح الطيب ٨٧/٥ .

٥٧) المراكشي : المعجب ١٦٤ .

٥٨) نفس المصدر ١٧٣ .

٥٩) ليفي — بروفنسال : التعليق على مجموعة رسائل رسمية موحدية ٣ . [انظر كذلك حسين مؤنس:(سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ...) في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ٢ (١٩٥٤) ص ٥٦ — ٧٥ و (نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين) في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ٣ (١٩٥٥) ص ٩٧ — ١٣٧ . المعرّب] .

ليوسف بن تاشفين « وهو الحائز قصب السبق في البلاغة ، كان على طريقة قدماء الكتاب من ايثار جزل الالفاظ وصحيح المعاني من غير التفات الى الاسجاع التي احدثها متأخرو الكتاب » (٦٠) الا ان هذه العبارة لا تؤيدها النماذج من انشاء ابن القصيرة الواردة في (القلائد) (٦١) ، والتي قد تكون بالطبع منتحلة .

ويذكر بانه كان للموحدين كتّاب من نوع ما منذ قيام دولتهم . فان عضوا بجماعة الموحدين ــ سليمان أَحَضْري ــ كان يكتب الرسائل عن اذن الامام المهدي (٦٢) . وشاركه في الكتابة احد الاخوان المتبنين من قبيلة هرغة هو ملول بن ابراهيم الصنهاجي ، الذي كان يعرف الكتابة بالسريانية والرموزيات (٦٣) ، اي انه كان ساحرا من نوع ما .

وكان اشهر واقدم كتابهم ابو جعفر بن عطية ، الذي استحوذ على خيال الكتاب ببلوغه منزلة الحظوة عند عبد المؤمن وبنهايته المفجعة . وكان وزيرا كذلك ــ كما ذكر على وجه التحديد (٦٤) ــ وهو المثال الوحيد لغير موحدي يحظى بهذا المنصب . كما انه مثال على ان شخصا سبق ان كان مقربا لدى المرابطين استطاع مع ذلك ان يصبو الى شغل منصب سام في عهد خلفائهم (٦٥) . ان الانتماء الصريح للمذهب المالكي ، والحق يقال ، لم يكن بالضرورة عقبة تحول دون نيل الحظوة لدى الموحدين ، ومن الامثلة على ذلك « فقيه الاندلس » ابو

---

٦٠) المراكشي : المعجب ١٦٤ .

٦١) ابن خاقان : قلائد العقيان ١١٧ .

٦٢) ليفي ــ بروفنسال : وثائق لم تنشر عن تاريخ الموحدين ، ص ٣٣ .

٦٣) نفس المصدر ص ٣٩ .

٦٤) انظر المراجع المشار اليها ص ٤٦ .

٦٥) قارن كذلك بهذا الخصوص امين الخزانة ابن صقر (ابن فرحون : الديباج ٤٨) .

http://www.al-maktabeh.com

بكر بن الجد (٦٦) وابن رشد (٦٧) . ولم يكن اي من الكتّاب ـ على حد علمنا ـ سيدا (بالمفهوم الموحدي) او موحديا (بالمفهوم الاكثر تحديدا ، اي من عقب اتباع المهدي الاصليين) (٦٨) . وكما هو متنظر فان الكثيرين من هؤلاء الكتاب كانوا اندلسيين ، كعبد الملك ابن عياش (٦٩) وابن المرخي (٧٠) وابي الحسن الهوزني الاشبيلي (٧١).

وينفرد عبد الواحد المراكشي في تقسيمه الكتّاب (باستثناء كتاب عبد المؤمن) الى فئتين : كتبة الانشاء وكتبة الجيش . ويبدو ان هذا التقسيم كان اول الامر متصلا بالتقسيم التقليدي لوزارتي السيف والقلم . فابن خلدون مثلا (٧٢) يقسم خطة القلم الى : رسائل ، مخاطبات ، صكوك ، اقطاعات ومحاسبات (وتشمل الاخيرة الجباية والعطاء وديوان الجيش) ويقسم خطة السيف الى : الحرب ، الشرطة ، البريد وولاية الثغور . الا ان نظام التقسيم هذا ينطبق على جميع دواوين الدولة ، وكما يستدل من كلام ابن خلدون فان ارباب السيف هم في الغالب عسكريون . اما تقسيم المراكشي فينطبق على الكتاب فقط ، وفيما عدا ذلك فانه لا يعرف بان أيا من كتبة الجيش الذين يذكرهم كان جنديا . ولعل الاقرب الى المعقول هو ان التقسيم

---

٦٦) ابن ابي زرع : روض القرطاس ١٣١ . ابن فرحون : الديباج ٣٠٢ . الضبي : بغية الملتمس ، الترجمة رقم ١٨١ . ينبغي ان لا يخلط بينه وبين سميّه الكاتب المرابطي (ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ١١٤٩) .

٦٧) المراكشي : المعجب ٢٤٢ . ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ٧٦/٢ ـ ٧٧ .

٦٨) انظر ابن الاثير : الكامل ٤٠٧/١٠ .

٦٩) ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الاول ، الترجمة رقم ٦٤ ص ٣٦ وما بعدها .

٧٠) ابن الابار : تكملة الصلة ، الترجمة رقم ١٨٧٢ . ابن الزبير : صلة الصلة ، الترجمة رقم ٢١٦ .

٧١) المراكشي : المعجب ٢٤٤

٧٢) ابن خلدون : المقدمة ١٤٠

http://www.al-maktabeh.com

لا يعدو كونه مجرد تقسيم الى اداريين مدنيين وعسكريين . وقد وصلتنا رسائل تنسب الى جميع من ذكر المراكشي من كتبة الانشاء تقريبا ، دون ان نجد رسالة واحدة منسوبة لمن ذكر من كتبة الجيش ، وفي هذا بعض الدلالة على ان لتقسيمه اساسا ما من الواقع . واحد كتبة الانشاء ، وهو ابن محشرة ، يشير اليه الغبريني على انه كاتب السر (٧٣) .

ج ـ الحاجب

من المألوف ان يكون للسلطان المسلم حاجب . وهو في المدلول العام للكلمة موظف داخل القصر في المقام الاول ، ومهمته ، كما يدل على ذلك اسمه ، حجب السلطان عن لجاجة رعاياه ، والعمل كآذن على الباب . وكثيرا ما يتطور المنصب بعد ذلك ليشمل مهام اخرى . فمن ناحية قد يصبح الحاجب رئيسا للخاصة الملكية ، وهو من ناحية اخرى بوصفه وسيطا بين السلطان ورعاياه قد يأخذ في التدخل النشط في العلاقات بينهما . وعلى اية حال ، فان قرب الحاجب المستمر من السلطان يؤدي بسهولة للتاثير عليه الى ان يصبح ، كما اصبح الحاجب الاندلسي المنصور ، سلطة في البلاد . كما ان الحجابة كثيرا ما تكون شرفية ، ويتولى صاحب اللقب مهام لا تبعد كثيرا عن مهام الحجابة في مدلولها الاصلي .

والحاجب في الدولة الاغلبية ينتمي بصورة رئيسية الى هذه الفئة الاخيرة . فبالنسبة لابراهيم الثاني ، لدينا اسماء مالا يقل عن خمسة حجاب تبيّن ان اثنين منهم كانا رجلين عسكريين ، وهما : محمد ابن

---

٧٣) الغبريني : عنوان الدراية ٣٠

http://www.al-maktabeh.com

قرهب (٧٤) وهو من اسرة عسكرية معروفة (٧٥) ، والحسن ابن ناقد (٧٦) الذي ذكر بانه كان واليا على صقلية . وقد ولى زيادة الله حجابته ابا المقارع حسن بن نافذ ونصبه قائدا عسكريا في طبنة (٧٧) كما ولّى حجابته فيما بعد احد ابناء قرهب (٧٨) ، ومن الجلي انه ينتمي الى الاسرة الآنفة الذكر ، وهو لذلك عسكري على الارجح ، مع ان النص لا يصرح بذلك . ومن بين حجاب الاغالبة الآخرين الذين يذكرهم المصنفون كان لابراهيم الثالث ثلاثة حجاب : احمد بن محمد بن حمزة (٧٩) ، نصر بن الصمصامة (٨٠) وفتح (٨١) . وكان لاولهم نفوذ كبير ، اذ اصبح كاتم سر ابراهيم وتمكن من الحصول على تعيين ابن عمه واليا على القيروان ، الا انه لا يبدو بانه قام بأي نشاط عسكري . اما نصر بن الصمصامة فشخصية غامضة ، ولا شك في انه ينتمي الى بني الصمصامة الثائرين والذين كانوا يقيمون في الزاب (٨٢) ولعله لذلك ، كما يرى فوندرهايدن ، يرمز الى محاولة لاكتساب ولاء هذه القبيلة ، او لحملها على الولاء اذا كان تعيينه في المنصب يقصد به ان يكون رهينة في يد الامير . واما فتح ، فان اسمه يدل على انه كان عبدا او ان آباءه كانوا عبيدا ، وفي الواقع فانه قتله ابراهيم في نفس الوقت الذي قتل فيه كل فتيانه . ويمكن الافتراض

---

٧٤) النويري : نهاية الارب ٤٠ ظهر ، ٤١ وجه .

٧٥) انظر الجدول في فوندرهايدن ص ٣٣٥ .

٧٦) النويري : نهاية الارب ٤١ ظهر ، ٤٢ وجه .

٧٧) ابن عذارى : البيان المغرب ١٤٠/١

٧٨) نفس المصدر ١٤٤ .

٧٩) [ابن الابار : الحلة السيراء ١٨٧/١ — المعرب] .

٨٠) ابن عذارى : البيان المغرب ١٢٠/١ . النويري : نهاية الارب ٤١ ظهر .

٨١) ابن عذاري : البيان المغرب ١٢٢/١

٨٢) اليعقوبي : كتاب البلدان ٣٥١ .

http://www.al-maktabeh.com

بان فتحا هو الوحيد من بين هذه الشخصيات الذي كان حاجبا نشيطا لا مجرد صاحب لقب .

ويذكر ابن عذارى عدة حجاب عيَّنهم عبيد الله المهدي في سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م وهم : جعفر بن علي ، طيب بن اسماعيل ، عثمان ابن سعيد ، جعفر بن عبيد (٨٣) . اما جعفر بن علي فمعروف كصاحب كتاب (سيرة جعفر) ، وكثيرا ما يرد ذكر زميليه طيب وعثمان ابن سعيد في كتابه ، ويرد ذكر الاخير تحت اسم مسلم . وفي كتاب (سيرة جعفر) ، يذكر بان مسلما كان عبدا روميا ، وكان صائغا ابتاعه جعفر في سجلماسة (٨٤) . ومن الغريب ان يكون مسلم قد اكتسب اسم رجل حر ، الا ان ابن عذارى يسميه بوضوح « عثمان ابن سعيد المعروف بمسلم السجلماسي » (٨٥) . ويبدو ان جعفر بن علي عمل خادما شخصيا وكاتم سر للمهدي ، الا ان ابن حماد (٨٦) ايضا ينقل عنه انه كان قائدا للمقدمة في وقعة ساقية مَقْس . ويذكر ابن عذارى دون مزيد من التفصيل اعادة تعيين جعفر في منصب الحجابة في عهدي القائم والمنصور (٨٧) . ويمكن الافتراض بانه كذلك شغل المنصب في عهد المعز (مع ان من المحتمل ان يكون قد تجاوز عندئذ الستين من العمر) اذ انه كان حاضرا عند الانتقال الى القاهرة . واما جعفر ابن عبيد فهو شخصية مختلفة تماما ، فغريب يذكر انه في سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م خرج في اسطول كبير الى صقلية ، ومنها غزا بر الروم ، وعاد الى المهدية عن طريق صقلية مثقلا بالغنائم (٨٨) .

---

٨٣) ابن عذارى : البيان المغرب ١ / ١٥٩ .
٨٤) ايفانو (Ivanow) :رواية اسماعيلية عن نشأة الفاطميين ، ٢٠٧ .
٨٥) ابن عذارى : البيان المغرب ١ / ١٥٩ .
٨٦) ابن حماد :اخبار ملوك بني عُبَيْد ص ٢٥ .
٨٧) ابن عذارى : البيان المغرب ١ / ٢٠٨ ، ١ / ٢٢١ .
٨٨) نفس المصدر ١ / ١٨٩ ــ ١٩٠ .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ويقول ابن خلدون (٨٩) ان اسم الحاجب « لم يكن معروفا في دولتهم (الموحدين) يومئذ » . وليس من الواضح ما اذا كان المقصود بـ« يومئذ » الفترة المغربية في مقابل الفترة التونسية ، او العهود الاولى لسلاطين المغرب . اما اذا كان الافتراض الاول هو المقصود ، فثمة دلائل اخرى تشير الى ان ابن خلدون كان على خطأ ، واما اذا كان الافتراض الثاني هو المقصود فانه على صواب .

ففي الايام الاولى من حكمه كان للمهدي بن تومرت خادم من الواضح انه كان يسمى حاجبا لو ان الظروف كانت ابعد عن السذاجة ، الا وهو ابو محمد واسنار (٩٠) وتذكر الحجابة صراحة على انها كانت من بين مهامه . ونظرا للحجاب السود الذين نصادفهم فيما بعد ، فلعل مما يسترعي الانتباه انه كان اسود البشرة . ويمكن القول بالتأكيد بانه كان عبدا من حيث الاصل ، ولكن الروايات لا تنص على انه كان في الواقع عبدا .

ولا يرد ذكر اسماء حجاب لعبد المؤمن ، الا انه لما كان واسنار يتولى خدمة ضريحه ، فيمكن الافتراض بانه واصل القيام لعبد المؤمن بالخدمات التي كان يقوم بها للمهدي . وفيما بعد ، يرد ذكر الحجاب بالنسبة ليوسف والمنصور والناصر والمستنصر وسعيد والمرتضى ، اي بالنسبة للخلفاء البارزين في بداية حكم الموحدين وكذلك بالنسبة لاثنين من سلاطينهم قبيل نهاية حكمهم ، ولذلك فمن الواضح ان تعيين الحجاب اصبح امرا مألوفا . وفيما عدا اثنين جديرين بالذكر ، فان كل هؤلاء الحجاب كانوا عبيدا او موالي . فقد ولي الحجابة ليوسف

---

٨٩) ابن خلدون : المقدمة ١٤٣

٩٠) انظر ابناءه ص ١٦٢

ابو المسك كافور (٩١) ، ووليها للمنصور فضيل وعنبر وريحان (٩٢)، وللناصر ريحان ثانية ومبشر (٩٣) وهكذا (٩٤) . ومن المستحيل ان يقرر المرء ما اذا كان هؤلاء الحجاب بيضا او سودا ، ويشار الى الواحد منهم كمولى او خصي ، وهي صفة مبهمة ولا يشار اليه كصقلبي او عبد ، اذن لكان النعت حاسما . وبالرغم من كثرة الصقالبة في الاندلس فانه قلما يسمع عنهم في المغرب . ويذكر ابن عذارى (٩٥) ان يوسف بن تاشفين اشترى مائتين وخمسين من الاعلاج (٩٦) والفين من العبيد السودان في سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م ، وهؤلاء يرد ذكرهم ثانية فيما يتصل بالقوات المسلحة (٩٧) . الا ان المعلومات عن العبيد بصورة عامة معلومات ضئيلة ومتناثرة . وكان ريحان يعرف ، حسب رواية المراكشي ، بريحان بَيْنك التي يحتمل ان تكون الكلمة الاسبانية blanco ،وعلى ذلك فان ريحان هذا كان اوروبي الاصل ، اي صقلبيا (٩٨) .

---

٩١) المراكشي : المعجب ٢٤٤ .

٩٢) نفس المصدر ٢٦٣ . ابن عذارى : البيان المغرب ٣/القسم الخاص بالموحدين ١٤١ .

٩٣) المراكشي : المعجب ٣١١ .

٩٤) انظر نفس المصدر ٣٢٤ وكذلك ابن عذارى : البيان المغرب / القسم الخاص بالموحدين ص ٣٨٩ وما بعدها .

٩٥) ابن عذارى : البيان المغرب ٤ / القسم الخاص بالمرابطين ص ٢٣ . وينقل العبارة صاحب (الحلل الموشية) ص ١٤ .

٩٦) من المحتمل ان يكون هؤلاء الاعلاج صقالبة ، ولكنه من الواضح انهم كانوا على اية حال اوروبيين . وثمة دلائل وفيرة على استعمال كلمة علج للدلالة على خدم المسلمين وعبيدهم من الاوروبيين سواء اكانوا مرتدين عن دينهم ام لا . انظر الكلمة في دوزي : ملحق القواميس العربية ١٥٩/٢ .

٩٧) انظر ادناه ص ١٤٥ .

٩٨) المراكشي : المعجب ٣١١ .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ويستثنى من هؤلاء الحجاب العبيد عمر بن عبد المؤمن والوزير عثمان بن جامع . وينسب كل من ابن عذارى (٩٩) وابن ابي زرع (١٠٠) حجابة عمر لاخيه يوسف ، في حين ان المراكشي (١٠١) يقول أن حاجب يوسف كان المولى كافور . اما ابن ابي زرع فانه يقول ان حاجبه عمر كان « الضابط لامره والقائم بملكه » . واما بالنسبة لعثمان ، فان كتاب (روض القرطاس) وحده (١٠٢) يذكر انه تقلد الوزارة والحجابة ، ولا يذكر شيئا عن ريحان ومبشر . وسواء صحت هذه الروايات ام لا ، فانها تعكس مفهومين مختلفين لمنصب الحاجب . فالحاجب في نظر ابن ابي زرع شخص ذو هيبة ونفوذ ، على غرار الحاجب المنصور ، ولذلك فانه يطلق هذا اللقب على الوزير الاول . اما المراكشي ، فانه ينظر اليه على انه رئيس الخاصة الملكية . واما ابن عذارى ، فانه ينقل من مصادره دون تفسير لما ينقله ، وهكذا نجده يتحدث عن كلا الضربين من الحجاب ، لكنه لا يفعل ذلك بالنسبة لنفس السلطان . وعلى اساس هذه المادة الضئيلة جدا ، فاننا نميل الى الاخذ بما يقوله المراكشي دون ما يقوله ابن ابي زرع . فقد كان الاول يعرف بلاط الموحدين معرفة شخصية ، في حين ان الثاني الذي كتب بعده بمدة طويلة يمكن اتهامه بصبغ روايته بآراء ، قد حددها مسبقا ، عما يجب ان يكون عليه الحاجب .

د ــ صاحب البريد

نسمع في العهدين الاغلبي والفاطمي عن دواوين البريد والخبر او

---

٩٩) ابن عذارى : البيان المغرب ٣ / القسم الخاص بالموحدين ١٤٠ .

١٠٠) ابن ابي زرع : روض القرطاس ١٣٠

١٠١) المراكشي : المعجب ٢٤٤ ، ٢٦١ .

١٠٢) ابن ابي زرع : روض القرطاس ١٤٧ .

الكشف . وكما يظهر من المصادر ، فان البريد كان في المقام الاول مصلحة استخبارات . ومع ان أوجه نشاط البريد كانت اساسية ، فانه يبدو بانها كانت ثانوية ، وليس من الواضح ما اذا كانت الخدمات البريدية متوفرة للاشخاص العاديين .

ان اول صاحب بريد يرد ذكره كان متصلا بهارون الرشيد قبيل استقلال افريقية . وكان اسمه يحيى بن زياد ، وهو الذي كتب الى الرشيد بالخبر عن الاحداث التي انتهت بتأسيس الدولة الاغلبية (١٠٣) . ونقل صاحب الخبر فيما بعد لزيادة الله الاول قولا غير متحفظ لمنصور الطنبذي (١٠٤) ينم عن الخيانة . وقد سبق ذكر تعيين عبد الله بن الصائغ وزيرا وصاحب بريد (١٠٥) .

وفيما يتعلق بالبريد في عهد الاغالبة يمكن ذكر حمام الزاجل الذي نقرأ احيانا عن استعماله لحمل الرسائل (١٠٦) ، وكذلك السلسلة من النيران التي يُدَّعَى بان ابراهيم الثاني اقامها « حتى كانت النار توقد في ساحل سبتة للنذير بالعدو فيتصل ايقادها بالاسكندرية في الليلة الواحدة (١٠٧) . وكان المفروض في ابن خلدون ان يطبق على هذه الرواية المبالغ فيها كثيرا قواعد النقد والتمحيص التي يوصي بها هو نفسه ، ولكن لنا ان نفترض ان الرواية تقوم على اساس من الحقيقة .

ويرد ذكر صاحب البريد احيانا فيما يتصل بالفاطميين . فابن

---

١٠٣) النويري : نهاية الارب ٣١ ظهر .
١٠٤) نفس المصدر ٣٤ وجه .
١٠٥) ص ٣٦ .
١٠٦) ابن عذارى : البيان المغرب ١/١٦٤ ، ١/١٧٠ . النويري : نهاية الارب ٤٢ وجه .
١٠٧) ابن خلدون : العبر ٤/٢٠٣ .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

عذارى (١٠٨) يذكر انه في سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م « ولي ابو جعفر البغدادي ديوان الكشف مشتركا مع عمران بن ابي خالد بن ابي سلام ». ويذكر ضمن احداث سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ان ابا جعفر ولي ديوان البريد ، ولم يزل يتولى ذلك الى ان هلك (١٠٩) . ان هاتين الاشارتين مأخوذتان من عريب ، وما فيهما من تناقض يمكن تفسيره بالافتراض بان عَرِيبًا نقلهما عن مصدرين مختلفين ذكـــرا تاريخين مختلفين للحادث الواحد ، واسمين مختلفين للمنصب الواحد . ومهما يكن من امر ، فان الخشني (١١٠) يورد حكاية بدون تاريخ ، وفيها يقوم صاحب الخبر (وهو في هذه الحالة لابد انه من صغار اصحاب الخبر) بنقل خبر الى البغدادي ، الذي ينقله بدوره الى عبيد الله . ويفهم ضمنا مما يذكره المالكي في (رياض النفوس) (١١١) انه كان للبريد الفاطمي ، حـتى قبل استيلاء الفاطميين على مصر ، وكلاء حتى في مكان ناء كمكة المكرمة.

---

١٠٨) ابن عذارى : البيان المغرب ١٦٢/١ . ابن الابار : إعتاب ١٨٩ .

١٠٩) ابن عذارى : البيان المغرب ١٦٩/١ .

١١٠) الخشني : طبقات علماء افريقية ٢٣٢ .

١١١) مجلة الدراسات الاسلاميـــة (Revue des Etudes Islamiques) العدد ٢ لسنة ١٩٣٥ ص ١٧١ .